

عنف المكان وتحولاته في رواية "بيت من جماجم" لـ: شهرزاد زاغز

The violence of place and its transformations in the novel "A House of Skulls" by: Sheherazade Zaghez

وردة سلطاني*

جامعة باتنة 1

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

ouarda.soltani@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2025-05-26

تاريخ الإرسال: 2025-03-04

ملخص:

تهدف الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على طبيعة المكان وهويته وتحولاته في رواية "بيت من جماجم" للكاتبة شهرزاد زاغز ، ترصد الرواية أحداث العشرية السوداء من خلال أمكنتها العنيفة ما جعلها رواية أمكنة بامتياز، تصبح الشخصية فيها تابعة له وإحدى ضحاياه . وهنا يطرح السؤال كيف تحولت الأمكنة في الرواية ؟ وكيف أثرت سلبا على الشخصيات؟

تقوم إستراتيجية هذه الدراسة على تحديد مجموعة من الأمكنة التي تمثل التمثيلات الأساسية في الرواية تتفاعل فيها/ومعها الشخصيات . وقد ركزنا على التيمات التالية : عنف المكان ، وتحولاته ، وتدميره ، وضحاياه. ومن النتائج المستخلصة: أن التحولات التي حدثت على المستوى الاجتماعي انعكست على المستوى الفني، وعلى مستوى الأمكنة في الرواية.

الكلمات المفتاحية: مكان؛ عنف؛ تحولات؛ عشرية سوداء؛ ضحايا

Abstract:

The research paper aims to shed light on the nature and identity of the violent place and its transformations in the novel "A House of Skulls" by Shehrazade Zaghez. The novel monitors the events of the Black Decade, through its violent places, making it a novel of places par excellence, in which the character becomes subordinate to it and one of its victims. Here the question arises: How were the places transformed in the novel? How did it negatively affect the characters?

The strategy of this study is based on identifying a group of places that represent essential details in the novel in which the characters interact. We focused on the following themes: the violence of the place, its transformations, its destruction, and its victims. Among the results extracted: The transformations that occurred on the social level were reflected on the artistic level and the places in the novel

*-المؤلف المراسل.

مقدمة:

تأثرت الرواية الجزائرية بالتحويلات السياسية والاجتماعية والثقافية والإيديولوجية في تسعينيات القرن الماضي، ونقلت هذا الواقع الأليم بكل تفاصيله، فالعمل الأدبي يتطور في إطار تحولات تاريخية عنيفة وثقها الكتابة كمحاولة لتفسير السرد بالتاريخ فيصبح الحكيم عبر استحضار التيمة المركزية العنف بأشكالها المتنوعة تضئ زوايا وأركان ذلك الواقع الحافل بالألم بكل تناقضاته . والرواية حسب باختين جنس أدبي غير مكتمل ذو طبيعة كرنفالية يمتص جميع الأجناس الأدبية فهو يمتص الواقع بكل تناقضاته ليكرس الحزن بكل بشاعته وآلامه نزوعاً لأنسنة الفضاء خطاباً يكتسب فيه المكان أهمية كبيرة بوصفه أحد العناصر الفنية المساعدة في تشكيل صورته الحاملة لرؤية السارد والممثلة لمنظور المؤلف بل هي هدف الكتابة نفسها.

وتنبني رواية العشرية السوداء، أو رواية المحنة، أو محكي الإرهاب على تعدد التسميات، المرتبطة بمدلول العنف وهو ذاته الذي جعل من التيمة الأساس للإرهاب بنية واحدة ذات موضوع واحد فقد دار المكان ضمن دائرة هذه الدلالة بوصفه قوة كبيرة يحرص السارد على التقاط البؤر الحكائية من منظومة سردية لمناطق الخوف في أنساقها القصصية العميقة وتشتغل هنا وظيفة الإدراك الحسي والجمالي مقابل وظيفة التخيل - حسب أرسطو- في المزيد من النفاذ للعمق النصي الذي تتحاور وفق تمثيلاته أقطاب عديدة من السلوك الشخصي للشخصيات في تفاعلها مع محيط الذاكرة المكانية التي تؤسس للمشهد الروائي ببنيتها المزدهمة بأفعال القتل. فالنص الروائي كما تقول سيزا قاسم "يخلق عن طريق الكلمات مكاناً خيالياً له مقوماته الخاصة وأبعاده المتميزة" فيتحول العنف إلى فضاء للمعنى يهز كل بعد مادي هندسي للمكان الإطار والشعور معا.

وجاءت هذه التحويلات على جميع المستويات المذكورة آنفاً بتضافرها وتداخلها متمثلة في رواية (بيت من جماجم) للكاتبة شهرزاد زاغر ضمن السياق الأدبي للعشرية السوداء لتغني التجربة الإبداعية، وعبرت من خلالها عن النزاعات والهموم التي تعكس تحولاتها

التاريخية حيث راهنت على إنشاء خطاب متجذر في صلب المكان بشكليه المغلق والمفتوح عبر تجسيد مفهوم العنف بكل صوره الواقعية والرمزية مشكلا بنية نصية يتحول فيها إلى منظور فاعل يحدد رؤية السارد التي تطرح من خلالها ثنائية العنف والمكان بالتركيز على سلوك الفرد والمجتمع.

من هنا بات من المفروض علينا طرح الإشكالية الآتية: كيف تجسد عنف المكان في الرواية؟ وما هي مظاهر تأثيره؟ وتقتضي معالجة هذا السؤال البحث في تجليات عنف المكان وتحولاته في رواية بيت من جماجم بتبني قراءة تحليلية لبنية النص تهتم بما أسميناه بالمحكي المكاني عبر ضبط العلاقات السردية واللغوية في بعدها الجمالي.

1- ملخص الرواية:

الرواية تتناول أحداث العشرية السوداء في الجزائر، ركزت على فئة الإعلاميين خاصة النساء اللواتي بدورهن تعرضن للملاحقات من طرف الإرهاب والاعتقالات فباتت حياتهن مهددة وغالبا ما تنتهي بالموت، ومن خلال هذه المشاهد المؤلمة عرت الكاتبة ما يحدث في المجتمع من جرائم يندى لها الجبين.

بطلة الرواية سميرة تعمل مع صديقتها حميدة في إحدى الصحف الجزائرية وتتقاسم معها السكن في إحدى غرف الحي الجامعي الضيقة في العاصمة، تسخر كاميراتها (Super Konica) لالتقاط الواقع الأليم للطبقة الدنيا في المجتمع وما تعانيه من حرمان من جهة، وقهر وخوف من الإرهاب من جهة أخرى، لكنها في نقلها للحقائق تصطدم بتهديدات من الإرهاب، ومن تعنت في مواقف رئيس التحرير المصادرة لحرية الرأي الأمر الذي أرغمها على تقديم الاستقالة.

تواصل عملها وتنقل كل الأوضاع المزرية من فقر وتهميش، وتهديدات وخوف وقتل في كل مكان. وفي إحدى جولاتها وجدت جمجمة الأمير عبد القادر الذي نبش قبره، أخذتها إلى بيتها واعتنت بها وحافظت عليها وأصبحت رفيقتها في مسيرتها. في الأخير تستطيعا نشر

تحقيقاتهما واستطلاعاتهما في جرائد أخرى، لكنهما اختطفتا وعثر عليهما غارقتان في بركة من الدماء ونشرت نعيمهما الجريدة التي كانتا تعملان بها.

2- عتبات النص، العنوان:

العنوان هو العتبة الأولى للنص الأدبي وقد ورد تعريفها عند صاحب اللسان في قوله: "أسكفة الباب التي توطأ، وقيل: العتبة العليا، والخشبة التي فوق الأعلى والحاجب، والأسكفة: السفلى، والعارضتان: العضادتان. وجمع عتب وعتبات".¹ فهو يجعل من العتبة نقطة البدء.

ومن الجدير بالذكر أن هذا المفهوم لم يحظ باهتمام النقاد قبل الوعي بمفهوم النص الذي راج مع الدراسات الحديثة، ومعرفة مكوناته باعتباره فضاء مكونا من العتبة الأولى التي تفصل الخارج عن الداخل الذي يتكون من عناوين هي عتبات ويمكن عدها بمثابة البوابة الرئيسة للدخول إلى عالم النص الروائي، والتعرف على مآهاته وإدراك مواطن جماليته فالعتبات هي "مجموع المعطيات التي تسيج النص وتسميه وتحميه وتدافع عنه وتميزه عن غيره وتعين موقعه في جنسه وتحت القارئ على اقتنائه وهي العناوين والمقتبسات والإهداء والأيقونات وأسماء المؤلفين والناشرين... الخ".²

وقد أخذ العنوان أهمية بالغة الأثر في النتاج الأدبي حيث استثمرت الرواية العربية المعاصرة المكان كمكون من مكونات الفضاء الروائي وبدوره برز (العنوان/ المكان) الذي لعب دورا كبيرا في شعرية الرواية ومنه الرواية المدروسة.

¹ - جمال الدين ابن منظور . (؟) لسان العرب، ط؟، مج13، دارصادر، بيروت، ص 414.

² - جنيت جبرار، (1997) خطاب الحكاية، ت، محمد معتصم، ط2، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص

جاء عنوان الرواية (بيت من جماجم) جملة اسمية مبتدأ وخبر شبه جملة. وكما هو معروف أن الجملة الاسمية تدل على الثبات والسكون عكس الجملة الفعلية ويدل هذا على سكون واستقرار الأزمة مما يوحي باستطالة مداها.

وقد ورد الخبر (من جماجم) شبه جملة من الجار والمجرور وشبه الجملة لاتؤدي المعنى مستقلا في الكلام كالجملة التامة، بل تؤدي معنى فرعيا كأنها جملة ناقصة، لأنها لا تتم المعنى المقصود إلا إذا تعلقت بما سبقها وهنا على مستوى العنوان نجد من جماجم متعلق بالفعل الكامن في المصدر (البيت). فعلاقة الجماجم بالبيت متلازمة توحى بحضور الموت أو القتل في كل بيت. كما أن العنوان ذو دلالة مكانية رمزية فالبيت متجذر في ذاكرة ونفسية الإنسانية، يحمل دوما دلالات الألفة والأمان. وهو هنا رمز للجزائر الجريحة في العشرية السوداء.

3- مفهوم المكان وأهميته:

تحاول الكاتبة في روايتها أن تسجل معالم المكان بعلاقاته وأهميته فقد ارتبط مفهومه في لسان العرب بمدلول الإقامة " فالمكان والمكانة واحد... والمكان الموضع، والجمع: أمكنة...،"¹

ويسوغ النقد ذلك بالرمزية التي يعبر عنها في المجتمع باعتباره: " الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه ومنذ القدم وحتى الوقت الحاضر كان المكان هو القرطاس المرئي والقريب الذي سجل الإنسان عليه ثقافته وفكره وفنونه ومخاوفه وآماله، وأسراره وكل ما يتصل به وما وصل إليه من ماضيه ليورثه إلى المستقبل"²

¹ - جمال الدين ابن منظور(؟)، لسان العرب، ط؟ دار صادر، بيروت، مج1، ص576

² - النصير ياسين. (1986). الرواية والمكان، ط1،. دار الشؤون الثقافية. بغداد. ص16/17.

وقد تطور مفهوم المكان تطوراً كبيراً عند الكتّاب العرب وأخذت تتوسع دلالاته ورمزيته وجمالياته. فلم يعد المكان مجرد ديكور يؤثث عالم الرواية تابع للشخصيات، أو وصفاً تزيينياً تتوقف عنده لأخذ استراحة جمالية فنية، بل أصبح عنصراً هاماً من عناصر السرد يتفاعل مع الشخصيات وبقية العناصر الحكائية في العمل الروائي، أو يصبح عنصراً رئيساً في الرواية المكانية، وهو بهذا الدور يؤسس لشعرية الرواية المعاصرة.

المكان مكون من مكونات الفضاء الحكائي وهو على أهميته لم يهتم النقاد به كاهتمامهم بالزمن، لعل حميد لحميداني من النقاد العرب الأوائل الذين تناولوا الفضاء الحكائي في كتابه بنية النص السردى. بين أن الفضاء أوسع من المكان، وقسم الفضاء إلى أربعة أفضية وهي: الفضاء الجغرافي، وفضاء النص، الفضاء الدلالي، الفضاء من حيث هو منظور روائي¹

ويأخذ المكان مفهوماً أعم هو الفضاء الجغرافي أعم من المكان، فهو مجموعة الأمكنة في النص الروائي، وقد ألح كثير من النقاد على تلازم السرد والوصف، فمكونا الفضاء الروائي هما: الزمن (آلية السرد) والمكان (آلية الوصف)، كما أن المكان ليس ثابتاً بل متحولاً وفي تحولاته ندرك الزمن فهما متلازمان، وهذا ما جعل باختين يطلق عليهما الزمكان "فعلقات الزمان تتكشف في المكان، والمكان يدرك ويقاس بالزمان هذا التقاطع بين الإنسان وهذا الامتزاج بين العلاقات هما اللذان يميزان الزمكان الفني"²

ومن هنا لا نتحدث عن المكان كشكل هندسي فارغ، بل المكان في تفاعله مع عناصر القصة التي تكسبه دلالة؛ أي يصبح مكاناً حياً لأن المكان ليست له قيمة إلا إذا حدث فيه شيء؛ أي استدعى وجود شخصيات وأحداث وهو ما يعرف بهوية المكان.

والفضاء عنصر مهم ومكون من المكونات الروائية لاستغناء عنه مثله مثل الشخصية والحدث والزمن مع اقتضاء وجود سارد. "إن الفضاء في الرواية ليس في العمق

¹ - لحميداني حميد (200)، بنية النص السردى، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ص64.

² - باختين ميخائيل. (1990)، أشكال الزمان والمكان في الرواية، ط1، تر، يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ص6.

سوى مجموعة من العلاقات الموجودة بين الأماكن والوسط والديكور، الذي تجري فيه الأحداث والشخصيات التي يستلزمها الحدث، أي الشخص الذي يحكي القصة والشخصيات المشاركة فيها " ¹

فالمكان يكون له حضور في إطار العلاقات التي يقيمها مع هذه العناصر المهمة ومن مجملها يتشكل المكون الحكائي ليعبر عنها في جانبها المضموني والفني.

4.1- فضاءات العنف وتحولاتها:

الفضاء في الرواية ليس من الأمكنة الجامدة، بل يصبح مكانا حيا من خلال علاقات الشخصيات فيه وتفاعلها معه، ومن خلال هذا التفاعل نستطيع أن نصنف مجموعة من الأمكنة هي في مجملها أفضية دالة " انطلاقا من مكوناتها الطبيعية والسوسيو ثقافية ودرجة توجيهها للمعنى وإثرائه وقوة رمزيته" ² ، فهو يمارس هذا التفاعل تماما من خلال مدلولات ممتدة التقت في مدلول واحد هو العنف وما يستدعي ذلك من فضاءات تحكمها علاقة مكانية خاصة تقتضي الألم والمعاناة بيد أنها تندرج في بوتقة الخوف .

2.4- فضاء المدينة:

يأخذ هذا الفضاء حضورا قويا ومكثفا على مستوى الرواية، وقد تعرضت معظم الأمكنة فيه للتحويل والتغيير المفاجئ، الذي يمثل تدميرا لما هو خارجي/ داخلي. هذه التحولات في الأمكنة غير متوقعة ولم تخضع لناموس التطور العام، يدل على التخلخل النفسي العميق للشخصيات، ويترجم على مستوى الواقع بالتحولات التي شهدتها الجزائر في التسعينيات على جميع الأصعدة خاصة الصعيدين السوسيوإيديولوجي وهذا ما أحدث المفاجأة والذهول على مستوى الشخصيات في الرواية تقول: "لقد تحول كل شيء من حولي إلى أشياء مرعبة.. الأشجار، المنازل السيارات، لافتات الإشهار المعلقة .. تبس الريق في

¹ - بحراوي حسن، (1990)، بنية الشكل الروائي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص31.

² - عيلان عمر (1998) ربح الجنوب . الفضاء/الدلالة، الملتقى الوطني عبد الحميد بن هدوقة، برج بوعريج، ص59.

فمي .. وهو يضح بألف الشؤون الصغيرة التي تهدر في فزع ، كل شيء إلى اللا معنى . تقدمت محملة بالخيبة ، أئن في فتور من وثق في نهايته .. أتتبع مصدر الحشجة . الصوت يقترب ، ثم ما ينفك يبتعد..هالني الأمر ، ولم يعد تجلدي الآن يمنحني القدرة على المواجهة لأبد لي من العودة إلى بيتي " ¹ تعلن البطلة بان الواقع من حولها تغير وتحول نحو الأسوأ هذا التحول من الأمن والاستقرار إلى اللا أمن واللا استقرار إنه تحول قسري ، أسقط على المكان انعكس سلبا على الشخصيات ، إذ أصبحت ضحايا عنف المكان ، فقدت كل الثقة وكل الحميمية فيه "كانت المدينة تغط في نعاسها ..كأن الناس أصبحوا يخافون الخروج منذ ما يقارب السبع سنين ، كان ضجيج الشارع يملؤني بالقوة والنشوة الهادرة ..الحافلات بأضوائها الضاحكة تنتظر العمال والعاملات بسعادة ، والكل يملؤه اطمئنان أخاذ يضجون حياة وحركة ..ولأن كأن البلاد ليست البلاد ، وكأن الناس ليسوا هم الناس [...] عشرات

¹ - زاغز شهرزاد (2000)، بيت من جماجم، ط1، الجزائر ، منشورات التبئين/الجاحظية .سلسلة الإبداع الأدبي، ص9.

الأجسام ممددة على الكرتون، وبعضها الآخر على الجرائد القديمة ..هناك عائلة بأكملها تصطف بمحاذاة دار الشرطة تغط في نوم عميق" ¹ .

ومن مظاهر التعارض في هذا المكان المديني هو التناقض الناتج عن التحول المفاجئ فضاء المدينة قبل التسعينيات آمن مستقر يصبح مضطربا عنيفا، قدمت الكاتبة مشهدا بانوراميا للمدينة ما يؤطر هذا المشهد أن المدينة خالية من حركة الناس وفي هذا دلالة على الخوف لأن المكان أصبح مقتربا بالموت.

وببدو أن الفضاء القصصي ينبني على التعارض، منفتح على الواقع الخارجي، ومن مظاهره في هذه الأمكنة، هو التناقض الطبوغرافي بين الفضائين، فضاء المدينة الجزائرية القديم وفضاء المدينة الجزائرية الحديث، فمن مظاهرها: أن الفضاء المديني القديم آمن مستقر، وما يميز فضاء المدينة الجزائرية في فترة التسعينيات هو اللا أمن و اللا استقرار، فضاء مديني عنيف وهذا ما نلاحظه في حركة الناس العكسية هذه الحركة في النصين تكون من شوارع المدينة إلى البيت، بينما يحدث العكس في حالة الأمن.

3.4- فضاء الشارع:

الشارع فضاء مفتوح مكان اللقاء "إن الشارع فضاء مفتوح ومحصور في الوقت نفسه ،فهو مفتوح من منفيذه للذين تأتي إليه ونغادره منهما وبينهما نتوقف ونتجول ونلتقي الآخرين والشارع يحصرنا وينغلق علينا من جانبيه بالبيوت والحيطان والأسيجه والحواجز"²

وفي فضاء هذا الشارع تقع أحداث الرواية، وتتفاعل الشخصيات وقد احتل الشارع في "بيت من جماجم" مكانا بارزا كانت له جمالياته المختلفة باعتباره مسارا وشريانا

¹ - المصدر نفسه. ص27.

² - جينيت جيرار، غولدنستاين، رايمون، غريفيل(2002)، الفضاء الروائي. تر: عبد الرحيم حزل. ط.؟، دار افريقيا الشرق. المغرب، ص139.

للمدينة، وفي الوقت نفسه المصعب الذي يصب فيه الليل والنهار أشغالهما وتجلياتهما، فهو المسار والمصعب في آن واحد.

لهذا الفضاء أهمية كبيرة في العمل القصصي بصفة عامة. فهو مكان انتقال ومرور نموذجي تلتقي فيه الشخصيات صدفة وبغير صدفة " زمكان الطريق المرتبط بزمكان اللقاء فذو حجم أوسع، إنما كثافة تقييمية أقل قليلا، اللقاءات في الرواية تحدث عادة في الطريق".¹

الطريق فضاء مفتوح تكمن أهميته في اللقاء، وهو في الرواية يشغل حيزا كبيرا، لأن الكاتبة اعتمدت تقنية التجوال في شوارع المدينة، وهذا يتناسب مع مهنة البطلة كإعلامية تحمل على كتفها كاميراتهما (السوبر كونيكا) وتجوب الشوارع.

تحولات هذا المكان نحدددها في مستويين هما: السوسيولوجي والإيديولوجي. يعين الأول من خلال تلك التحولات الاجتماعية المفاجئة بين مرحلتين متقاربتين جدا نهاية الثمانينات والتسعينيات من القرن الماضي، ولئن كان الوضع الاجتماعي رافدا من الروافد الذي أفرز الفقر والتميش والإرهاب، فإن هذا الأخير وضع المجتمع في بؤرة العنف ودوامة الموت. هذا على المستوى المرجعي، أما على مستوى النص الروائي تتضح معالمه على الشخصيات الفاعلة ضحايا هذا الشارع الذي حمل كل هذه التناقضات التي تسارعت وتيرتها " لون الحيطان يتكشفني، يأخذ لون ثياب بالية لامرأة عجوز تسند ظهرها المتعب مادة يدا مرتعشة تستجدي العابرين [...] كان جسد التعب واحدا فوق هذه الأرضة الباردة يرفع عينيه المنطفئتين، ويمضي السائرون أبدا إلى الصقيع، كانت أسماؤهم كثيرة. كان تسكعهم مملا على الفصول النائية يبحثون عن فصل أقل برذا، وقسوة وظلما [...] أراهم يصطفون بالآلاف أمام باب الهلال الأحمر.. الأيام الصعبة تركت وجوه الواقفين تمنحهم إقرارا بمواصلة الانزلاق على طول الشارع المؤدي إلى المجزرة (la batoire) تزكم أنوفهم رائحة آلاف من الشياه والأبقار المسلوخة والمعلقة في سقف المجزرة. " ² ما يميز ضحايا

¹ - باختين ميخائيل، مرجع سابق، ص 221.

² - زاغز شهرزاد، مصدر سابق، ص 6.

هذا الشارع أنهم صامتون وصامدون، رؤية المستقبل لديهم ضبابية لا شيء أمامهم ينبيء ببصيص الأمل .

وهكذا نرى أن مدار فضاء الشارع على امتداده في هذه الرواية يتصف بأوصاف متعددة ومستويات متنوعة، فلئن اشتركت ضحاياه في للاستقرار والفقر فإننا نجد الحارات والأزقة مقارنة مع شوارع المدينة ضحاياها يطعمهم الحرمان " أنا ابنة هذه الأزقة المتعبة، هذه الدروب الضيقة هؤلاء هم أهلي وقبلي وأبناء بلدتي ..يطلع من بين الشقوق الغائرة لأحد البيوت شبح طفل يرمقني في استجداء :

- سيدتي لم نأكل ثلاثة أيام.."¹

إذا كان الشارع في هذه الرواية من الناحية الاجتماعية شارع متعب فهو على المستوى الإيديولوجي شارع العنف والإرهاب وعلى العموم فإن جماليات الشارع في الرواية العربية والجزائرية ليست في ذاتها ، وإنما بما تحمله الشخصية من مواقف ومشاعر تصبها عليه " فالشارع العربي كما هو معروف ماديا وواقعيا شارع قبيح المنظر، سواء كان هذا الشارع في المدينة أو في القرية، ومرد هذا القبح من هذه الفوضى التي تحكمه فوضى الناس، وفوضى الحكام ومرد هذا القبح أيضا يأتي من جراء عدم الانتماء إلى هذا الشارع"² : لأن الإرهاب يعده شارع السلطة، وشارع الحاكم الذي هو على خلاف معه على طول الخط.

وهو عندما يدمر الشارع ، فإنما ينتقم من السلطة التي تحكم هذا الشارع.وعلى مستوى الرواية فهو شارع قبيح المنظر يثير الكراهية مرتبط بالهزيمة والموت " رائحة الموت تنبعث من جميع الأمكنة ،وأنا وحدي الحياة هنا أخالها جثة ممددة على الرصيف وأنا وحدي أحصي هزائمي .. لقد أصبحت أنا والهزيمة نمشي ونكيل الشوارع."³ تحول المكان

¹ - المصدر نفسه، ص14.

² - النابلسي، شاكر، 1994، جماليات المكان في الرواية. ط1، بيروت، العربية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص19

³ - زاغز شهرزاد، المصدر نفسه، ص16

في هذه الرواية إنما يركز أساسا على الشارع فهو أكثر حركية مستمدة من حركة وعلاقات الشخصيات وتفاعلها به.

تدمير الشارع: مشهد التدمير في الرواية يأتي على شكل تفجيرات مشهد قصير من حيث المدى، لكنه صاعق ومؤثر، لم تسترسل الكتابة في وصف المشهد كثيرا لكنها أحاطت به إحاطة تامة، وعدم الاستفاضة في المشهد ليدل على سرعته ولتقدم صدمة ومأساة المكان "تطلعت إلى أول شارع.. كانت حركة الناس غير عادية ، ضجيج وصراخ وهروب في جميع الاتجاهات كأنه يوم الحشر. الناس هذا دأبهم كلما انفجرت قارورة غاز معدة خصيصا للانفجار. حدث هذا منذ أيام ويحدث اليوم وسيحدث غدا .الجثث رائحتها تملأ الجو .. إنني أتنفس هذا الجو الدبق منذ أن أحصيت معهم أول فجيرة .. هل أجري ب"السوبركونيكا " لأفوز بالسبق الصحفي.. آه ما ألغنه من سبق !!¹ ما هو إلا تدمير لنفسية الإنسان ولطموحاته ؛ لذا سيكون الضحية الأولى فهو قيمة يعطي للمكان معنى ودونه يفقد المكان صلاحياته كذلك تدمير العمران والبيئة، هو قتل للمكان .

ضحايا التدمير: كثيرون متنوعون منهم :

-الضحايا الشهداء: وهم الذين يمثلون مشهد الموت بؤرة الانفجار " هذه الجثث المتطايرة أشلاء متفحمة فوق أعمدة الكهرباء وعلى الجدران. والأبواب والنوافذ، وفوق زجاج السيارات .. هذه العين المرشوقة على غصن الشجرة وهذه الرجل التي تتدلى من أعلى ساحة الساعة العمومية."² تقديم مشهد الموت موجزا مركزا يعلن عن مأساة حقيقية.

-ضحايا المهنة: الضحية الصامدة: بطلة الرواية رغم ما لحق صديقتها تبقى صامدة في وجه الاعتداء مكرسة كميرتها لتصوير ما يحدث في هذه الشوارع متحدية كل الصعاب

¹ - المصدر نفسه، ص15.

² - المصدر نفسه، ص15.

"لم تستطع السير كونيكاً إلا أن تكون رفيقتي الدائمة منذ خمس سنين، وأنا أتكى على ثقلها في محفظتي الجلدية السوداء." ¹

وجه الصمود لهذه البطلة وقوفها في وجه الإرهاب بفضح ما يحدث في الشارع، وذلك بالتقاط الصور الدالة على الجريمة. وجه آخر للصمود عدم خضوعها للتدجين في مقر الجريدة ما أدى إلى استقالتهما، إذا كان لتحول المكان على المستويين الاجتماعي والإيديولوجي أثر سلبي على الشخصيات، فإن الصدمة كانت أشد وطأة على شخصية البطلة سميرة وصديقتها حميدة شهيدتا الواجب الوطني. إعلاميتان تصنعان الحدث تلتقطان الأخبار من الشوارع هددتا من طرف مجهولين، لكنهما استمرتتا في عملهما حتى أغتيلتا معا " في حدود الثامنة اعترض طريقي شخص كان يحمل بين يديه قطعة قماش بيضاء اللون.. رمقي بنظرات باردة، ثم ببرودة أكبر ركب السيارة من نوع الأكسبريس بيضاء اللون كان يضغط المكبح بشدة مخلفا وراءه غبارا كثيفا...." ² هكذا تنتهي حياتهما بكل برودة ثم تنقل الجريدة التي كانتا تعملان بها خبر اغتيالهما « لقد كانت الرفيقتان تنامان في صمت في بركة من الدماء، وعلى جثة إحداهما كتابات هي آخر ما تبقى لنا " ³ فالساردة جسدت البعد التسجيلي الذي يمتد على مساحات إنسانية كبيرة ترصد أحزان البطلة وكذلك أحلامها التي بددها الإرهاب وحولها للنسيان فهي بذلك تدينه شر إدانة فلا مسوغ في الدنيا لإنهاء حياة إنسان بريء.

4.4- فضاء الجبل:

يتميز بالانفتاح والارتفاع وفي ذلك دلالة على الاستعصاء والشموخ يقترن بالبطولات والانتصارات، وفي النص الروائي يستحضر الأمير عبد القادر وبطولاته. هذا الفضاء كغيره من الأفضية السابقة يشهد حضورا مكثفا للتحويلات وهي أكثر حدة من سابقتها نلاحظ

¹ - المصدر نفسه، ص3

² - المصدر نفسه، ص14.

³ - المصدر نفسه، ص64.

ذلك في تكثيف الدلالة على مستوى اللغة وعلى مستوى الشخصيات حيث يأخذ الرمز نصيبا كبيرا.

على مستوى التحولات استحضار شخص الأمير الممثل في الجمجمة، الأمير عبد القادر رمز للوطن فهو مؤسس الجزائر الحديثة وهو رمز للتاريخ وللبطولات "كان حصان الأمير يحمم في صدري. يحمم فوق أعالي الهضاب. فوق جبل "بوزقة" " والبابور" فوق جبل " بوكحيل" وجبل "ثامر" هناك هنا فوق جبال "الأوراس" "والهقار" استيقظ السكان ذات صباح فزعين يملأ أعينهم الثقيلة حيرة لا يعرفون مصدرها، يصم آذانهم صهيل الصديق وحممته لقد مر أميرهم من هنا .. في هذا المكان بالذات حفر حصانه الأبيض التراب على مرأى منهم".¹

لكن التحولات المصاحبة لهذا المكان نلاحظها من خلال ما يمثله المكان في السابق وما آل إليه في الحاضر، حيث نبش قبر الأمير وضاعت جمجمته، بل اختلطت مع الجماجم الكثيرة، لكن بطلّة الرواية وجدت الجمجمة وأخذتها إلى بيتها حيث شملتها بكل الرعاية "هل أخبرها بذاك الحبيب الذي يختبئ في بيتي.. يختبئ في صدري.. في كل أجزائي.. لقد تماهى في أشعر أننا واحد، هو أنا وأنا هو..."²

وفي نبش قبر الأمير وضاع جمجمته رمز للمساس بالوطن وبالأمة الجزائرية وبتاريخها وعدم الحفاظ عليهم "لذا كان تشبثها بالتراب وثيقا، وإن دغماها للأشجار صعبا.. لقد كنت أسمعها تقول، وأنا أمسح التراب العالق بها: «البلاد التي لا تعرف كيف تحافظ على جماجمها هي بلاد ملعونة»³ ففي هذه المرحلة التاريخية دمر المكان ودمر الإنسان ودمر التاريخ لكن الرواية لا تنتهي بهذه المأساة بقدر ما يشيع بصيص من الأمل يتمثل في بطلّة الرواية التي احتضنت الجمجمة وخبأتها في بيتها وحافظت عليها وأعادت لها الاعتبار "أضمرها إلى الصدر يرعشني دفنًا، دافئة رغم أنها مجرد جمجمة تنبعث منها حرارة الوطن"⁴

¹ - المصدر نفسه، ص 60

² - المصدر نفسه، ص 41

³ - المصدر نفسه، ص 28.

⁴ - المصدر نفسه، ص 53.

ويتشظى فضاء الجبل إلى أمكنة متعددة، ولأنه رمز لبطولات وتاريخ الجزائر، شامخ شموخ هذه الجبال، نجد حضور هذا التاريخ البطولي في الجزائر قاطبة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها في جبال بوزقزة والبابور وبوكحيل، وثامر، والأوراس والهقار فيتسع معنى البطولة ليشمل الوطن قاطبة ويتحول إلى معنى روحيا يوحد بين الفضاءات بأجناسها كافة.

5.4- فضاء البيت:

ذودلالات خصبة لارتباطه بالإنسان، فهو المأوى ولا يذكر إلا وتذكر معه العلاقات الحميمة وقيم الألفة والانتماء "إن سمات المأوى تبلغ حدا من البساطة، ومن التجذر العميق في اللاوعي يجعلها تستعاد بمجرد ذكرها، أكثر مما تستعاد من خلال الوصف لها".¹

نضع البيت في تقاطب مع فضاء الشارع. ثنائيتان ضديتان، مكانان يحتلان مساحة كبيرة من الرواية، طبوغرافيا "يتصل فضاء الشارع بفضاء المنزل فالشارع والمنزل يعيّنان بعضهما ويحدد أحدهما الآخر والشارع والمنزل وان كانا ينتميان إلى أنموذجين مختلفين، فإنهما يشكلان مجتمعين، مركبا- محيّا".²

فالشارع والبيت كل منهما يحدد الآخر، من الناحية الهندسية صمم البيت خصيصا بطريقة تحمي الإنسان، فالدخول إلى البيت واحتلال الإنسان مساحة منه فيه إحساس بالأمان والاستقرار.

والبيت في الرواية يدخل في صراع مباشر مع الشارع، يفسر هذا حركة الشخصيات العامة من البيت إلى الشارع ومن الشارع إلى البيت. والكاتبة لا تهتم بوصف تفاصيل فضاء البيت بل تكتفي بالوصف العام والشامل لأن ذكر التفاصيل لا يخدم سياق السرد في الرواية.

تحول هذا المكان نلاحظه من خلال كونه مكانا للاستقرار والطمأنينة يتحول في هذه الرواية إلى مكان لا يوفر الاستقرار فمن الناحية الهندسية، ضيق المكان لا يوفر الراحة، فبيتهن

¹ - باشلار غاستون (1984)، جماليات المكان، تر، غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص42.

² - جينيت جيرار، مرجع سابق، ص139.

غرفة في الحي الجامعي لا تسع أغراضهما، ولم تكونا راضيتين عنه كبيت للسكن المريح، إلا أنه مكان يوفر لهما الأمن نلاحظ ذلك في هذا النص "لعله ضيق المكان ..لعلها الشقق التي توزع في فوضى على من يستحق ومن لا يستحق ..أليس مضحكا أننا نسكن هذا البيت الملحق بالحي الجامعي للبنات ونكتب كل يوم عن أخبار توزيع السكنات الجديدة ، لقد مر على دفعي ملف السكن عشرة أعوام..¹

ما يميز هذا المكان أنه ضيق، تعمه الفوضى، وإن كانت الفوضى من إنتاج الإنسان، يصبح النظام والفوضى فلسفة بالنسبة للبطلّة، ورغم ضيق المكان فهو الاستقرار في نهاية المطاف، هذا ما يجعل البطلّة تشعر بالراحة في بيتها"«لعله التعب الذي أجنيه كلما عدت من رحلي الاستطلاعية كل صباح ..يمكنني هكذا أن أتمدد على فراشي في هدوء فلا شيء بإمكانه أن يكسر هذه الرغبة في التمدد حتى لو انفجر العالم..² هذا الفضاء الصغير الضيق يدخل في صراع مع فضاء الشارع المفتوح، الذي يتميز بالعنف والعدوانية فالبطلّة بحكم مهنتها إعلامية تجوب الشوارع تلتقط الأخبار وكلما حدثت عملية إرهابية لن تجد مأوى يوفر لها الأمن غير بيتها.

ومدار الصراع بين البيت والشارع يكون بالانتقال من الشارع إلى البيت كلما انتهى عمل البطلّة أو حدثت عملية إرهابية – ومن البيت إلى الشارع، كلما استفز الشارع البطلّة بالرغبة في تصوير مشاهد العنف. ينتهي هذا الصراع بسيطرة الشارع بعنفه على البيت، يتجسد ذلك في الإحساس بالخوف الذي تشعر به البطلّة، فاستمرار عمليات الإرهاب جعل صديقتها تترك المهنة، وتنتهي البطلّة وحيدة في بيتها"ها أنا في غرفتي تؤنّسني مئات الصور والجمجمة رفيقي "³

أما التحولات الإيديولوجية لهذا المكان يتأثر بالشارع نلاحظها في العملية الجدلية بين البيت والشارع تحول المكان من الاستقرار إلى للا استقرارينعكس سلبا على البطلّة التي هي من أهم ضحاياها. فعندما يفقد هذا المكان خصائصه لصالح الشارع، تفقد البطلّة الأمن

¹ - زاغز شهرزاد المصدر نفسه، ص 12/11.

² - المصدر نفسه، ص 60

³ - المصدر نفسه، ص 2.

في الشارع و البيت "أيقضتني ضربات قوية على الباب ..تسمرت بمكاني ، في حين كانت حميدة تلملم جسمها داخل روبها الأزرق وتسأل في فرع:

- من؟

- افتحي نحن الأمن" ¹

هذا الفضاء المغلق فقد صفاته ليستحيل فضاء المدينة العام بما فيه من مدن وشوارع وأزقة إلى فضاء رعب وموت ، فضاء يغتال كل شيء .

6.4- مقر الجريدة:

الوصف الطبوغرافي لمعالم هذا المكان غير واضحة، فهو فضاء مغلق حضوره قليل، وظيفيا يظهر دوره كمحفز للأحداث وحاسم لها، فهو معيق للبطل، منه تخرج بقرارات ضد مبادئها فتقرر الانفصال"«لقد غادرت مقر الجريدة منذ ساعة تقريبا، وكنت في قرارة نفسي عازمة على فسخ العقد الذي يربطني بهم»² لان رئيس تحرير الجريدة متحفظ جدا على الأخبار والاستطلاعات التي تأتي بها ولا يقوم بنشرها. بل يفرض عليها آراءه ما اضطرها إلى مغادرة مقر الجريدة.

الخاتمة:

لقد تبين بالتحليل الملموس أن الحكيم عن تجليات العنف بواسطة استحضار المكان قد استعاد سلطته عبر رؤية الذات المبدعة التي تعيش تاريخها ولا تستطيع الانفصال عن تحولات أحداثه المتجذرة في المتخيل الإنساني الذي يخرج من عمق الذاكرة لتشكيل مفهوم المكان بصفته نسقا محتضنا لفضاء السرد. وقد تم استخلاص النتائج الآتية:

¹ - المصدر نفسه، ص 61.

² - المصدر نفسه، ص 39.

- تعد الرواية مكانية بامتياز ابتداء من عنوانها. خضع فيها المكان إلى تحولات كبيرة نتيجة التحولات الاجتماعية والإيديولوجية، فتحول المكان من الرخاء إلى الفقر ومن السلم إلى العنف والموت.
- طرحت الرواية أزمة المرأة المثقفة في العشرية السوداء حيث دفعت حياتها ثمنا لمواقفها العادلة بجانب الرجل سواء.
- قدمت الكاتبة رؤية فجائية، أبانت عن مآسي كثيرة أثبتت انكسار الإنسان وانهيار المدينة، حتى بدا مستقبلهما مظلماً لاتكاد تتضح معالمه.
- تتضح إيديولوجيا الكاتبة في نهاية الرواية على أنها تحمل أملاً وتفاؤلاً بالمستقبل من خلال محافظة البطلة على جمجمة الأمير عبد القادر رمز المقاومة والوطنية ورمز الجزائر الحديثة. لكن إلى أي مدى استعاد المكان هويته الحقيقية وتألقه؟
- إن الغاية الكبرى من هذه الدراسة هي إعادة التفكير في رواية الأزمة من خلال أسئلة ومقاربات جديدة تتأسس على مفاهيم مثل العنف أو الإرهاب وخصوصية التحولات التاريخية التي تتمثل المكان كتجل للعالم والكون.
- قد يكون هذا العمل إضافة في سلسلة القراءة النقدية المحدودة التي تناولت المكان في رواية بيت من جماجم مستفيدين في ذلك من البنيوية والتحليل النصي ضمن مقارنة ملائمة تتوخى التكامل المعرفي.

المراجع:

1. باختين ميخائيل. (1990)، أشكال الزمان والمكان في الرواية، تر، يوسف حلاق، ط1، دمشق، منشورات وزارة الثقافة.
2. باشلار غاستون ، (1984)، جماليات المكان، تر، غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت،
3. بحراوي حسن ، (1990)، بنية الشكل الروائي، ط1، .المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء
4. جينيت جيرار ، غولدنستاين، رايمون، غريفل. (2002)، .الفضاء الروائي. تر: عبد الرحيم حزل. دار افريقيا الشرق. المغرب.
5. جنيت جيرار، (1997) خطاب الحكاية، ت، محمد معتصم، ط2، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة
6. زاغز شهرزاد ، 2000، بيت من جماجم، ط1، الجزائر، منشورات التبيين/ الجاحظية .سلسلة الإبداع الأدبي.
7. سعدي إبراهيم ، (2003)، تسعينيات الجزائر كنص سردي، ط 6، الملتقى الدولي السادس. عبد الحميد بن هدوقة، برج بوعريش.
8. سيزا فاسم بناء الرواية دراسة في ثلاثية نجيب محفوظ دار التنوير 1985م
9. عيلان عمر ، (1998)، ربح الجنوب . الفضاء/الدلالة، الملتقى الوطني الأول عبد الحميد بن هدوقة، برج بوعريش
10. لحميداني حميد ، (2000)، بنية النص السردي، ط3، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
11. النابلسي، شاكرا، (1994)، جماليات المكان في الرواية، ط1، بيروت، العربية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
12. النصير ياسين. (1986). الرواية والمكان، ط1، . دار الشؤون الثقافية. بغداد

13. جمال الدين ابن منظور . (؟) لسان العرب، ط؟ مج 1/13، دار صادر، بيروت،